

﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ ۗ عَلَوًا كَبِيرًا﴾ (٤٣):

إنه متنزه متعال عما يقولون: إن له شركاء أم بنات أو أبناء أم ماذا مما يمس من ساحة الربوبية الوحيدة، وتعالى علواً كبيراً كما هو الكبير المتعال.

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤):

إن الكون كله محراب فسيح فصيح يفصح عنه ويسبح له وينزهه عن شركاء فيوحده ويسجد له ويسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم!

السموات هنا هي الأجواء السبعة بما فيها ومن فيها، والأرض هي الأرضون السبع: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾ (١) حيث الآية تستعرض الكون كله أياً كان ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ تعم عامة العقلاء في السماوات والأرضين من ملك أو إنس وجان أياً كانوا وإيان ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ تستغرق كل شيء دون إبقاء لشيء، إنها تسبح بحمده ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾.

و«هم» في ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ راجع إلى كل شيء لمكان الاستغراق لكل شيء في التسبيح بالحمد و﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ﴾ حيث يتطلب شعوراً وإدراكاً نحن لا نفقهه في كل شيء فالأشياء تعرف ربها فتسبحه بحمده، لا فحسب العقلاء من ملك وإنسان وجان، بل والحيوان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِيحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢) ﴿وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (٣) ف«صوت الديك صلاته وضربه بجناحيه سجوده وركوعه» (٤) ف«لا تضربوا وجوه الدواب فإن كل شيء يسبح

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٤١.

(٣) سورة ص، الآية: ١٩.

(٤) الدر المنثور ٤: ١٨٣ - أخرج ابن مردويه أبو نعيم في فضائل الذكر عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: صوت... وركوعه ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الحجر: ٢١].

بحمده»^(١) «لا تتخذوها - الدواب - كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه»^(٢) .

فكل صنف من صنوف الدواب والطيور أمة تسبح حتى النمل^(٣) وصوت الضفدع تسبيح^(٤) : لا فحسب الدواب كلها تسبح بل والأشجار والجمادات : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾^(٥) ، ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾^(٦) : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾^(٧) : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَدِّلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾^(٨) ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُرَّ إِلَيْ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾^(٩) .

فقد يردف الإنسان بكل دابة، والطيور والملائكة بالرعد، والطيور بالجبال، بتقديم الرعد والجبال في التسبيح بالحمد، مما يبرهن أنهما تسبحان كما الطير وكما الملائكة والإنسان.

- (١) المصدر أخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ . . .
- (٢) المصدر أخرج أحمد عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال: اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي .
- (٣) المصدر أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن النمل يسجن وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه: من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من النمل تسبيح .
- (٤) المصدر أخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: نهى النبي ﷺ عن قتل الضفدع وقال: نعيقها تسبيح .
- (٥) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩ .
- (٦) سورة ص، الآية: ١٨ .
- (٧) سورة ص، الآية: ١٩ .
- (٨) سورة الرعد، الآية: ١٣ .
- (٩) سورة الأنعام، الآية: ٣٨ .

وإنه لمشهد كوني رهيب عجيب فريد حين ينبئنا ربنا أن كل شيء يسبح بحمده، من كل ذرة، وكل زاحفة وحشرة، وكل طير ودابة، وكل ما في الأرض والسماء، وكل سابحة في الماء والهواء، الكل تسبح ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾:

جمله ذرات عالم در نهان با تو می گویند روزان و شبان
ما سمیعیم و بصیر و باهشیم باشما نا محرمان ما خامشیم^(١)

إن ذرات الكون أياً كان تنتفض روحاً حية حيث تنبض بالحياة في تسبيح الله، فالكون كله حركة وحياة، وكله تسبحة لله، محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها، وجدان الإنسان يرتعش وهو يستشعر كونه غارقاً في السبحات، وهو غارق في الشهوات، غافل عن الله ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢) فالأمانة العامة التي نعرفها في الكون كله هي تسبيحه بالحمد، فقد أداها الكون كله وحملها وخانها الإنسان بظلمه وجهله، ف«ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله تعالى إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشيطان وأغنياء بني آدم»^(٣).

ترى ما هذا التسبيح الشامل لكل شيء، هل هو قول عن اعتقاد بعمل:
مثلث التسبيح الكامل؟ ولا نسمع إلا الإنسان المسبح! أم هو التسبيح

محرم جان جمادان كي شويد
غلغل اجزاي عالم بشنوید
وسوسة تأويلها برياديت
بهر بينش کرده إي تأويلها
دعوى دیدن خيال وغي بود
آن دلالت همچو کفتن ميشود
وأي آن کس کو ندارد نو رحال

(١) جون شماً سوى جمادی می روید
از جمادی در جهان جان روید
فاش تسبیح جمادات آیدت
چون ندارد جان تو قنديلها
که غرض تسبیح ظاهر کی بود
یس چه از تسبیح یادت می دهد
این بود تأویل أهل اعتزال

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) الدر المثور ٤: أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة عن رسول الله ﷺ قال . . .

التكويني لا عن شعور وإدراك إلا لذوي الشعور؟ والتسبيح فعل لمن يسبح وهو بحاجة إلى شعور ما واختيار! والاستدلال بإتقان الصنع من العقلاء ظرف لتسبيح العقلاء والكون موضع لهذا الظرف، لا أنه المسبِّح لولا شعوره بنفسه! ومن ثم ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ تعريف بكيان هذا التسبيح أنه لا يفقه للإنسان الفقيه دقائق من العلوم الخفية، فهل الاستدلال بالكون على المكون وكيانه لا ينال للإنسان وإن فكر ما فكر ودبر ما دبر، والكون كله آيات لله لمن فكر ودبر: ﴿سَرُّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١).

والآيات الآفاقية هي كل شيء يستدل بها على الله بما يرينا الله برسل الفطرة والعقل والحس الذاتية وسائر الرسل الخارجية، فهل بعد ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لو كانت الدلالة التكوينية هي المعنية؟! فالفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وغائب التسبيح بالحمد في كل شيء وأصل لحد لا يتوصل إليه بأي علم حاضر، والتسبيح التكويني لكل شيء حاضر لكل ذي حجي فكيف ﴿لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؟

نحن لا نفقه تسبيحهم: قولتهم هذه وفعلتهم وعقيدتهم، إلا أن يفقهنا الله كما فقه سليمان: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَعْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَمَ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا...﴾ (٢) وداود ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٣).

وهنا يتحقق أن لكل شيء لساناً أياً كان وإن كنا لا نفقه لغاتها، ثم من وراء اللسان جنان وعمل بالأركان، تسبِّح بحمد ربها وتسجد لربها ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١﴾ ﴿١﴾ أَوْلَمَ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيْتُوهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْتَكِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿٢﴾ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ ﴿٣﴾ .

تسبيحات بالحمد وسجودات مخيرين لحد لا مسيرين ، وفي ضياع لهم فيما يتوجب عليهم من تسبيح ضياع لأعمارهم في الأولى (٤) كما في تخلف الدواب عن سنة العدل عقاب لهم في الأخرى ﴿... ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٥) وعل في كل حركة وكل صوت لكل شيء عبادة وتسبيحة (٦)

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥ .

(٢) سورة النحل، الآيات: ٤٨ - ٥٠ .

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦ .

(٤) الدر المنثور ٤ : ١٨٤ - أخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال أتى أبو بكر الصديق بغراب وافر الجناحين فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما صيد من صيد ولا عضدت عضاة ولا قطعت وشيجة إلا بقلة التسبيح» وعن أبي هريرة عنه ﷺ مثله «إلا بتضييعه التسبيح» أخرج أبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: ما صيد من طير في السماء ولا سمك في الماء حتى يدع ما افترض الله عليه من التسبيح وأخرج العقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ والديلمي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: آجال البهائم كلها وخشاش الأرض والنمل والبراغيث والجراد والخيول والبغال والدواب كلها وغير ذلك آجالها في التسبيح فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت منها شيء .

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣٨ .

(٦) الدر المنثور ٤ : ١٨٥ - أخرج أبو الشيخ عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بطعام ثريد فقال: إن هذا الطعام يسبح، قالوا: يا رسول الله ﷺ! وتفقه تسبيحه! قال: نعم ثم قال الرجل: ادن هذه القصعة من هذا الرجل فأدناها منه فقال: نعم يا رسول الله هذا الطعام يسبح فقال: ادنها من آخر وأدناها منه فقال: هذا الطعام يسبح ثم قال: ردها، فقال رجل: يا رسول الله ﷺ لو أمرت على القوم جميعاً، فقال: لا لو أنها سكنت عند رجل لقالوا من ذنب، ردها فردها وفيه أخرج الخطيب في تاريخه عن عائشة قالت دخل علي رسول الله ﷺ فقال لي: يا عائشة اغسلي هذين البردين فقلت يا رسول الله ﷺ بالأمس غسلتهما، فقال لي: أما علمت أن الثوب يسبح فإذا اتسخ انقطع تسبيحه؟ .

﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ ومن تسبيحهم «سبحان الله وبحمده»^(١).

وترى إن كون الأشياء مسبحة عن علم على أن جماداتها أموات غير أحياء هلاً يمنع من الاستدلال على حياته تعالى بعلمه؟ . . . كلاً حيث الحياة لزام العلم ولكل شيء حياة حسبه، والله محيي الأشياء الأحياء، حييٌ بغير حياتهم «باين عن خلقه وخلقته باين عنه».

هذا هو الكون كله يسبح الله بحمده ولكن الإنسان خان هذه الأمانة الكبرى، طاعته وعبادته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾^(٢).

هذا العرض تكويني تبياناً لكيان الكون أجمع من حيث الطاعة والعصيان وعصيان الإنسان دون الكون أجمع.

والأمانة واجبها الأداء إلى أهلها ما دامت أمانة لدى غير أهلها، فإذا حملت تحققت الخيانة، سواء نوى ألا يؤديها منذ أخذها، أم لم يؤديها

= أقول: ومن طرق أصحابنا أحاديث عدة تجاوب ما أوردناه عن إخواننا السنة ففي نور الثقلين ٣: ١٦٨ ح ٢٢٢ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: قال سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. قال: تنقض الجدار تسبيحها وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام مثله وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام مثله عن الباقر عليه السلام نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن توسم البهائم في وجوهها وأن تضرب وجوهها لأنها تسبح بحمد ربها عنه عليه السلام أيضاً أنه دخل عليه رجل فقال: فذاك أبي وأمي إني أجد الله يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الحجر: ٢١] . . . فقال له: هو كما قال: فقال: أتسبح الشجر اليابسة؟ فقال: نعم، أما سمعت خشب البيت كيف ينقض؟ وذلك تسبيحه فسبحان الله على كل حال.

(١) الدر المشثور ٤: ١٨٣ - أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمران النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن نوحاً لما حضرته الوفاة قال لابنيه: أمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

عملياً، فمن الأمانة الفطرة والعقل حيث يحملان التكليف أمام الله، ولكنما الإنسان يخون الفطرة والعقل رسولي الباطن، ويخون سائر الرسل حيث يعصى ربه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ محطته تغافل الإنسان عن تسبيحه بحمده بين سائر الكون ما لم يصل إلى الشرك والنفاق: وكما في آية الأمانة: ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً.

وكذلك ﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فعدم فقهه علمياً قصور معذور، ولكن تركه عملياً وعدم مجاراة الكون في التسبيح بالحمد تقصيراً محذور، وفي سواه معذور.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى آذَانِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾ تعني الرسول ﷺ ومن ثم من معه، الذين يقرؤون القرآن قراءته ﷺ، فليس كل قارئ للقرآن يجعل الله بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، فرب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، وليس ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم كل الكفرة، وإنما هم الذين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) فهم يستهزئون أو يهاجمون على قارئ القرآن فالقرآن حفاظ على قارئه إن كانوا يقرؤون كما كان الرسول يقرأ أو قريباً منه، كلُّ قدره.

هنا بين قارئ القرآن وبين الكفار حجابٌ مثلث: على أعينهم فلا يرونه، وعلى آذانهم فلا يسمعونه وعلى قلوبهم فلا يفقهونه، لأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

بِالْآخِرَةِ ﴿٣﴾: ﴿كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَابْتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمَّ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ءَادَاتِنَا وَقُرٌّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ (١).

كِنَّ الْقُلُوبِ وَوَقَرِ الْأَذَانَ لزامان على الذين لا يؤمنون. وهما خسار الظالمين ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢) وليس هناك على الحقيقة كنان على قلب ولا وقر في سمع، وإنما هم لاستثقالهم سماع القرآن حيث يتلى عليهم ويُفرغ في آذانهم، هم كالذين على قلوبهم أكنة دون علمه، وفي آذانهم وقر دون سمعه، وإن كانوا أتوا من قبل نفوسهم، وأخذوا بسوء اختيارهم، ولذلك ذموا على إطرأحه، ولم يعذروا بالإضراب عن استماعه.

ثم الحجاب المستور عن أعينهم عليها ليس إلا على الذين يريدون به شراً وضراً حين يقرأ القرآن كما هنا ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ...﴾ حفاظاً على كرامة الوحي وحامله، وكما في يس حفاظاً على نفسه المقدسة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٣) أم على حرمة حين يهتك كما قصدته حمالة الحطب فما رآته ورأت أبا بكر فرجعت بعدما خست (٤).

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣ - ٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٩.

(٤) الدر المنثور ٤: ١٨٦ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أسماء بنت أبي بكر أن أم جميل دخلت على أبي بكر وعنده رسول الله ﷺ فقالت: يا بن أبي قحافة ما شأن صاحبك ينشد في الشعر؟ فقال: والله ما صاحبي بشاعر وما يدري ما الشعر فقالت: أليس قد قال: في جديها جبل من مسد، فما يدريه ما في جدي فقال النبي ﷺ قل لها: هل ترين عندي أحداً فإنها لن تراني جعل بيني وبينها حجاب فقال لها أبو بكر فقالت: أتتهزأ بي والله ما أرى عندك أحداً وأخرج ابن مردويه عن أبي بكر قال: كنت جالسا عند المقام ورسول الله ﷺ في ظل =

إِنْ ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ هو المستور عن الأنظار الكافرة، ثم لا حجاب لمن سواها، فهو ساتر مستور كالحجر المحجور بين بحري العذب والمالح: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (١).

إن القرآن يكشف عن حجب المؤمنين وهو حجابٌ على الكافرين، كما يجعل بينه وبينه حجاباً مستوراً، وهو حِرْزٌ يحترز به من يعتمده ويقراه مؤمناً أو يكتبه وكما في سلسلة الذهب الجعفري عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (٢): وترى ما هو ذكر الرب وحده في القرآن إذ كانوا يولون على أدبارهم

= الكعبة بين يدي إذ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية زوجة أبي لهب ومعها فهران فقالت: أين الذي هجاني وهجا زوجي والله لئن رأيته لأرضن أنثيه بهذين الفهرين وذلك عند نزول تبت يدا أبي لهب قال أبو بكر: فقلت لها: يا أم جميل ما هجاك ولا هجا زوجك قالت: والله ما أنت بكذاب وإن الناس ليقولون ذلك ثم ولت ذاهبة فقلت يا رسول الله ﷺ إنها لم ترك فقال النبي ﷺ: حال بيني وبينها جبرائيل. أقول وأخرج مثله عديد من رواد الحديث والجامعين. (١) سورة الفرقان، الآية: ٥٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٨٦ - أخرج ابن عساكر وولده القائم في كتاب آيات الحرز عن العباس بن محمد المنقري عنه قال، قدم حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام المدينة حاجاً فاحتجنا إلى أن نوجه رسولاً وكان في الخوف فأبى الرسول أن يخرج وخاف على نفسه من الطريق فقال الحسين عليه السلام: أنا أكتب لك رقعة فيها حرز لن يضرك شيء إن شاء الله تعالى فكتب له رقعة وجعلها الرسول في صورته فذهب الرسول فلم يلبث أن جاء سالماً فقال: مررت بالأعراب يميناً وشمالاً فما هيجني منهم أحد والحرز عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب وأن هذا الحرز كان الأنبياء يتحرزون به من الفراعنة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، أخذت بسمع الله وبصره وقوته على أسماعكم وأبصاركم وقوتكم، يا معشر الجن والإنس والشياطين والأعراب والسباع والهوام واللصوص مما يخاف ويحذر فلان بن فلان سترت بينه وبينكم بستر النبوة التي استتروا بها من سطوات الفراعنة جبرائيل عن أيمانكم وميكائيل عن شمالكم ومحمد ﷺ أمامكم والله سبحانه وتعالى من فوقكم يمنعكم من فلان بن فلان في نفسه وولده وأهله وشعره وبشره وماله وما عليه وما معه وما تحته وما فوقه ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ - الآية إلى - نُفُورًا ﴿٤٦﴾ (الإسراء: ٤٥-٤٦). وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

نفوراً؟ إنه كلمة التوحيد؟ وإنه البسملة حيث كان الرسول ﷺ يجهر بها كما عنه ﷺ والأئمة من عترته ﷺ (١).

فذكر الرب وحده دون سواه يعم كلمة التوحيد حيث تنفي من سواه وسائر ذكره في بسملة وسواها حيث لا يقرون به سواه.

إن ذكر من سوى الرب دونه إلحاد، وذكره مع سواه إشراك، وذكره وحده توحيد، وإن كان لا يعني الذاهر ما تعنيه اللفظة فيما سوى التوحيد.

(١) الدر المثور ٤ : ١٨٧ - أخرج البخاري في تاريخه عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال : لِمَ كنتم بسم الله الرحمن الرحيم فنعلم الاسم والله كنتموا فإن رسول الله ﷺ كان إذا دخل منزله اجتمعت عليه قريش فيجهر بسم الله الرحمن الرحيم ويرفع صوته بها فتولي قريش فراراً فأنزل الله ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَيَّ آدْبُرُهُمْ قُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٦]. أقول ورواه مثله في روضة الكافي بسنده عن أبي عبد الله ﷺ وفي المجمع قال رسول الله ﷺ : إن الله من عليّ بفاتحة الكتاب فيها من كنز الجنة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الآية التي يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ... ﴾ ورواه مثله القمي عن أبي عبد الله ﷺ .

والعياشي عن زيد بن علي قال : دخلت على علي بن جعفر فذكر ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فقال : تدري ما نزل في بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقلت : لا - فقال : إن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس صوتاً وكان يصلي بفناء الكعبة فرفع صوته وكان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وجماعة منهم يستمعون قراءته قال : وكان يكثر ترداد بسم الله الرحمن الرحيم فيرفع بها صوته قال : فيقولون إن محمداً ليردد اسم ربه ترداداً إنه ليحبه فيأمر من يقوم فيسمع عليه ويقولون : إذا جاءت بسم الله الرحمن الرحيم فأعلمنا حتى نقوم فنسمع قراءته فأنزل الله ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ... ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ وَلَوْ عَلَيَّ آدْبُرُهُمْ قُورًا ﴾ .

وفيه عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس جهر بسم الله الرحمن الرحيم فتخلف من خلفه من المنافقين عن الصفوف فإذا جازها في السورة عادوا إلى مواضعهم وقال بعضهم لبعض : إنه ليردد اسم ربه ترداداً إنه ليحب ربه فأنزل إليه الآية .

وفيه عن أبي حمزة الثمالي قال قال لي أبو جعفر ﷺ : يا ثمالي إن الشيطان ليأتي قرين الإمام فيسأله هل ذكر ربه؟ فإن قال : نعم اكتسع فذهب وإن قال : لا - ركب كتفه وكان إمام القوم حتى ينصرفوا - قال قلت : جعلت فداك وما معنى قوله : ذكر ربه؟ قال : الجهر بسم الله الرحمن الرحيم .